الدرس السادس/ ديوان محمد العيد آل خليفة

أولا/ التعريف بالشاعر:

ولد(**محمد العيد**) في مدينة (**عين البيضاء**) والتي جغرافيا تابعة لولاية أم البواقي بتاريخ(28 أوت 1904) من أسرة دينية عريقة، فحفظ القرآن وتعلم بمدرستها الابتدائية، ثم انتقل إلى (بسكرة)، حيث تابع دراسته. وفي سنة(1920) تاقت نفسه للذهاب إلى(**تونس**) كي ينال شهادة(التطويع) من جامع (**الزيتونة**) الذي كان يعتبر معقلاً إسلاميًا عربي. وقد زاد من شوق(محمد العيد) لتحقيق هذه الأمنية أنّ بشائر النهضة القومية كانت قد أخذت تبعث الآمال في النفوس. وفي جامع (**الزيتونة**) حاول أن يتعمق الثقافة العربية قديمها وحديثها، وأن يجمع بين الحياة الدينية التي ورثها عن أسرته ومشايخه، وبين الحياة الصاخبة التي يعيش تحت شمسها ويسمع عن تطوراتها أشياء كثيرة. فقد عاد إلى(بسكرة) بعد عامين قضاهما في جامع(الزيتونة). ولم يجد**"محمد العيد"** بدًّا من الاندماج في هذه الحياة الجديدة، والمشاركة في بناء المدرسة وإحياء التعليم العربي وتربية النشء الجديد.. وقد كان للشيخ(عبد الحميد بن باديس) أن رشحه لمنصب مدرس في مدرسة(الشبيبة) بالجزائر العاصمة، وهي مدرسة شعبية حرة أنشأها بعض الفضلاء من أبناء الجزائر، لكي تؤدي رسالة تربوية وثقافية، وأطلقوا عليها مدرسة (الشبيبة الإسلامية) ثم انخرط في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكان عضوًا بارزًا بها.

وفي بداية الحرب العالمية الثانية ترك العاصمة وعاد إلى(**بسكرة**)، وعلى كلّ فقد عاد إلى مهنته (التدريس) حين انتقل إلى(**باتنة**) للإشراف على مدرستها العربية. ومن(باتنة) انتقل بأسرته وكبريائه إلى(**عين مليلة**) حيث بقي ثماني سنوات مديرا لمدرستها الحرة. وقد عاش(محمد العيد) يناضل بإيمان الواثق بالانتصار لنفسه على الحياة القاسية ولشعبه على الاستعمار والاضطهاد : فقال:

كما شئت فامطل يا زمان ببغيتي أو ابخل بها عنّي فما أنا يائس

أتحسب أنّي للحوادث راضخ وأنّي منها جازع القلب بائس

سيأتي زمان الجزائر زاهر يطيب الجنى فيه وتنمو المغارس

ولكن رغم ما تعرض له من أخطار، وما قاسى من الجفاء والجحود، فقد خرج من عزلته الراكدة، ومضى محلقًا في آفاق واسعة، يصف أحاسيسه ومشاعر الشعب بألحان هادئة حينا، غاضبة أحيانا. وعندما انطلقت شرارة الثورة التحريرية(نوفمبر 1954)، ألقي عليه القبض وزج به في السجن، لتحدد في الأخير

إقامته الجبرية داخل(**بسكرة**) حتى يوم الاستقلال. أما بعد الاستقلال فقد لزم بيته متعبدًا، ذاكرًا زاهدًا في الدنيا، قليل المشاركة في النشاطات حتى وافته المنية سنة (1979) بباتنة ودفن ببسكرة.

ثانيـا/ محـاور الديـوان (مضـامينـه):

يعدّ ديوان(محمد العيد آل خليفة) من بين التراث الأدبي الذي حفظ للجزائر كيانها، ودعم بنيانها، وقد لعب شعره دورًا هامًّا في المجالات النضالية والثقافية والاجتماعية والدينية في حياة الشعب الجزائري والشعوب العربية عامة. إنّ المتصفح للديوان يدرك أنّ أهم مواضيع تطغى على شعره وباتت ملمحًا مهمًّا وتسيطر على أغلب قصائده، تتمثل في هذه المحاور الشعرية الرئيسية: إسلاميات وقوميات، أخلاقيات وسياسيات واللزوميات، والمراثي، وأدبيات وفلسفيات، والإخوانيات والثوريات... .

1/ إسلاميات وقوميات: إنّ صلة الشاعر بالدين كانت أقوى من أن تقاوم وأَوْضَح من أن تكون محل مناقشة، والمتصفح لشعره يلاحظ من أول وهلة على أنّه يستلهم كثيرا من خواطره وأفكاره من رصيده الديني(القرآن الكريم) وبصورة عامة لا تخلو قصيدة مهما كان غرضها من أثر الدين فيها، يقول في قصيدة/**هـذيـان آشـيـل:**

هيهـات لا يعتري القرآن تبديـل وإن تبـدل تـوراة وانجيـل

قل للذين رموا هذا الكتـاب بمـا لـم يتفـق معـه شـرح وتأويـل

فاعزوا الأباطيل للقرآن وابتدعـوا في القول هيهات لا تجدي الأباطيل

ما بـال(آشيل) يهذي في مقالته كحالم راعـه فـي النـوم تخييـل

ما بال(آشيل) يزري المسلمين وهم غـر العـرائك أنجـاب بهـاليـل

أفكـارهم بهدى القـرآن ثاقبـة فلا يخامـرها فـي الرأي تضليـل

ويقول في قصيدة/ العروبة أمتنا الكبرى: (شعر القوميات)

إنّ العروبـة تستعد لنسف مـا بذر اليهـود لها من الألغـام

مـا ضم مؤتمر العروبـة شملها إلا ليعلن عـن فـداها الحامـي

قـد أرعب العرب اليهـود بعقـده ومحـا الإمام خـرافـة الحاخـام

سنرى فلسطين العـزيـــزة مثلمـــا كـــانت بمثابـة حرمـــة وذمـــام

وطـن العروبـة كلـه وطـن لنـــا فـي مصر أو بغداد أو في الشام

2/ أخلقيـــــــــات: لقد نظم قصيدة بمناسبة اختتام السنة الدراسية بالمعهد الإسلامي بمدينة(باتنة) صيف سنة(1965) بعنوان/ **(هذه قمة الفُتُوى):** يعرض فيها حالة الشباب الواقع في ظلال الانحرافات ناصحًا راشدًا إياه إلى الطريق المستقيم:

إنّمـا يسعد البـلاد الشبـاب ذو حفـــاظ لعرضـــه وصيـان

لا شباب باع الحياة وأمسـى بين حان يحسو الخمر ودخان

أو شباب على التراث تعـدى فـتـردى فـــي هـــوة الكفـــران

صَدَّه عـــن تراثـه كـلّ رأي أجنبـي فَتـــاه فـــي الوديـــان

أو فخذ لي ما كان منها شرابًا مستطـابًـا لشعبـــي الـضمـــآن

وتَعَلَّم مـــا شئته من علـــوم وفنـــون بحكمـــة واتـــزان

3/ اجتماعيات وسياسيـات: يتضمن هذا المحور كثيرا من القصائد ذات المدلول السياسي والاجتماعي فبالنسبة للقضايا(**الاجتماعية**)، فإن(**محمد العيد**) شاعر اجتماعيي، دقيق الملاحظة، مرهف الإحساس فنافح عن القيم الوطنية والاجتماعية لشعبه، وجعل موضوع شعره هو الشعب:

أيّها الشعب أنت موضع شعري وشعوري لا زينب والـــرباب

لا تلمني علـــى اطّرَاحي للشعر فعـذري مستوضح منجـــاب

أيّهـــا التاعبون في عمل الخير ستأتـــي بأجـرها الأتعـــاب

أمّا بالنسبة للقضايا(**السياسية**): فقد حفل شعره بالقصائد السياسية المحضة، والمقطوعات الوطنية، فقد تحدث عن المؤتمر الإسلامي، وعن مأساة الثامن ماي (1945)، كما عبر عن مأساة فلسطين، وعن مصر والعدوان الثلاثي عليها، وعن استقلال ليبيا والسودان.. .

يقول في قصيدة بعنوان(**يا فرنسا**) والتي نشرت في مجلة الشهاب(جويلية1936):

يـا فرنســا بـك الجــزائر لاذت و أكنت تلك الولاء الشديـدا

فـاز فيك(اليسار) فاليوم لا عسر أليس اليسـار فـألاً حـميـدا

فـاز فيك (اليسار) فالأمـة اليوم ستفدى بما عسى أن تفيـدا

أجمعت أمـرها لمؤتمـر الشعب فـوفتـه مهرجــانا وعيــدا

صرخ الشعب فيه صرخته الكبرى ونــاداك يستــرد الفقيــدا

نحن رغم الطغاة في الأرض أحرار وإن خالنـا الطغـاة عبيــدا

4/ اللزوميـــات: وهي عبارة عن مقطوعات ومواعظ وخواطر، أو هي مواقف من الناس والحياة والكون، كما هو في هذه العناوين(جولة طرف ـ الحق ـ سر الكون ـ الناس ـ ابن آدم..). يقول في قصيدة بعنوان/ (**يا قلب**) والتي نشرت في البصائر (سنة 1936):

تحــرر وانطلق يـا قلب حينًا إلـى كم أنت للشهــوات فــن

إلـى كم أنت سارٍ تحت ليـل عليك بكـــل غـــاشية يجـن

تطبّب والتمس يـــا قلب بـرءا فلا يرضـاه لـــي دين وســـن

ودع يا قلب عنك من الأماني فجل حديثـها رجـــم وظـــن

5/ الثوريـــــــات: لم يكن الشاعر بعيدا عن طائفة الحركة الوطنية التي تؤمن بأنّ الثورة هي الحل الوحيد الذي يمكّن من استعادة الحق المغصوب. فالقراءات المتأنية لشعره، يلفت انتباهك أن المقاومة في شعره بدأت في المرحلة التي كانت تتطلب إعداد الإنسان كمشروع للمستقبل. وقد انطلق (محمد العيد) من هذه المسلّمة، ونستشف ذلك في قصيدة ألقاها سنة(1932) في إحدى حفلات مدرسة(الشبيبة الإسلامية) إذْ يحذر فيها الشعب ويدعوه إلى فتح عينيه والنظر بعيدا لتجنب سهام الصائدين، ونصحه بأن يتخذ من الجبال الشاهقات حصونًا منيعة، تستعصي على العدو، ويقدم نفسه فداء للوطن:

يـــا ابن الحنفية اخلع كـراك فأنـوار صبحـك تترى جليـــــة

تجمع من حولك الصـائدون وأنـــا للصـــائديـــن الرميـــــــة

فطر وابن وكرك بين الصخور مع العصم في الشاهقات العليــة

ونفسك بِعهَـا مـع البائعيــن كــرام النفــوس لبـاري البريــة

إنّ قلة شعر(محمد العيد) المواكب لثورة التحرير لا يعني توقف قلبه عن الخفقان باسم الجزائر وشعبها وبالاستقلال والحرية، ففي القصيدة التي ألقاها(سنة 1956) بمناسبة استقلال(السودان) كانت الجزائر حاضرة بقوة. تساءل فيها(محمد العيد) عن الجزائر وهل حان وقت تحريرها وتقرير مصيرها كبقية البلدان العربية التي بليت بهذا الداء وتخلصت منه ولم يفته التبشير فيها بحرية الجزائر وباستقلالها، يقول فيها:

نتبـادل القبـلات باستقــلالـه فرحًا وإن طافت بنا الأحــزان

متسائلين عـن الجزائر هل دنا تحريرها أم حظها الحرمــان؟

ومتى تقرر كالشعوب مصيرها فقد اقتضى تقريرها الإبــان؟

ومتى تفــوز بنعمة استقـلالها فقد استقلت دونها الأوطــان؟

كما نجده يقول في قصيدة بعنوان/ **صوت جيش التحرير**:

نحن جيش التحرير جند النّضال نحن أسد الفدى نمور النزال

دمـدم الطبل للنفيــر عثـرنــا وهززنـا البــلاد كالزلــزال

واتخذنــا من الجبــــال قلاعا تقرع السمع بالصدى كالجبال

فالإذاعــات تنبئ النّــاس عنّا بانتصــاراتنا بكـل مجــال

وأدرنــا رحى الــوغى فانتصرنا وأذقنــا الأعــداء مرّ النكال

وقبرنــــا استعمــــارهم وفككنا شعبنا مـن سـلاسل الأغـلال

لقد كان شعر(محمد العيد) صدى للحياة والاستماع إلى همسات الشعب وصرخاته وإلى دموعه وبسماته والتحسس على آلامه وجراحه، وتصوير كل ذلك في شعر يحمل طابعه الحماسي وغيرته على الوطن المنهوب والحقوق الضائعة، كما وجد في الشعب وحركاته وفي نفسه وآمالها منبعًا للشعر الصادق الجميل، ومن ثم غلب على شعره الشعر السياسي والاجتماعي الثوري.. وتضاءل الشعر الذاتي.

ثالثـا/ محمد العيـد بين التقليــد والتجـديــد:

1/ القديـم في شعـره: والحقيقة لو اختبرنا شعره لوجدنا أكثره من الشعر التقليدي ولا سيما من حيث الصورة وطرق التعبير، فتمسكه بالقافية والاقتباس والتضمين والتلغيز وتصيُّد الحكمة والمثل والبديع اللفظي وطريقة تناول الموضوعات.. كل هذه وغيرها جعلت شعره أقرب ما يكون إلى الشعر التعليمي الغارق في التقليد.. وإذا تجاوزنا هذا إلى الأغراض الشعرية نفسها وجدناها جميعًا تقريبًا من الأغراض القديمة التي نظم فيها الشعراء العرب القدامى على اختلاف عصورهم.

2/ الجديـد فـي شعـره: ومن الإنصاف أنّ شعر(محمد العيد) ليس كله قديمًا، فإنّ فيه ألوانًا أخرى تعتبر من أحدث الألوان. فقد طرق موضوع القصة الشعرية من ذاك قصيدة(**صوت من غيابات الغيوب**) و(**تاعس ناعس**) و(**جذوة**). ونظم مسرحية شعرية تاريخية هي مسرحية(**بلال**) منوعًا فيها من القوافي والأوزان، وقد مثلت هذه المسرحية أكثر من مرة ونالت شهرة واسعة في الأوساط الثقافية والشعبية والمدرسية، لا لقيمتها الفنية والاجتماعية أو الذهنية، ولكن لقيمتها التاريخية والدينية، حيث جعل موضوعها شخصية إسلامية تمثل فيها الإصرار على الحق والثبات في المقاومة، كما تمثلت فيها روح انتصار(الدين الجديد) إلى حدّ التضحية والفداء،(رمزاً لانتصار الشعب الجزائري على المستعمر).

أمّا **القـافيـــــة:** فقد خرج (محمد العيد) أحيانًا عن قيود القافية إلى الموشح ونحوه، مثلما فعل في قصيدة(**يا هزاري**) التي نظمها على غرار الموشحات الأندلسية، والقصائد الأخرى مثل (**ليلاي**) و(**آفة العين**) و(**دمعة آسف**). و(لمحمد العيد) فضل كبير في تطور المعاني الشعرية، وإدخال صور جديدة لم تعرفها إطارات الشعر القديمة أو لم تألفها، وهذه المعاني كثيرة منها الذاتي والموضوعي، ومنها السياسي والاجتماعي.